المحاضرة رقم: 02

عنوان المحاضرة : المرجعيات الفكرية للآداب العالمية

المحاضرة رقم 2:

عنوان المحاضرة : المرجعيات الفكرية للآداب العالمية

توطئة:

يعد البحث في مسألة المرجعية بشكل عام، والمرجعية الفكرية تحديدا، أمرا بالغ لأهمية لكل مشتعل بمجال الفكر والأدب، لما يمثله من أهمية، فلاشيء يستقيم من دون العودة إلى مرجعيته التي مندونهالايمكنها البت في أمر بشكل حاسم ولا إنهاء نزاع أو خلحةإشكال .

إن المرجعية الفكرية هي الأساس والمتكأ الذي تستند عليه كل المعارف والأفكار والفلسفات والمواقف، وهي المنبع والأصل الذي نعود أليه عندما تغم علينا الأفكار وتلتبس.

يمكننا القول بصفة عامة أن المرجعية الفكرية هي تلك الخلفية من الأفكار والمعارف والقيم التي تشكل – مجمتعة– قاعدة صلبة وركنا ركينا عليه تستند كل الأعمال والإبداعات والمواقف والأقوال، وإليه تعود لتستر شد به حال إحساسها بالتيه أو الضباع، والمرجعية مصطلح " يقصد به فعل العودة إلى شيء ما، لبيان كيف يحيل موقع شيء إلى آخر يسبقه، كذلك هو فعل الرجوع أو الاسناد إلى أشياء أو أشخاص في نص أو خطاب حين ترسل إلى قارئ أو متسمع .... الخ" [1]

– إن تعاطينا مع الآداب، خاصة الأجنبية منها، لن يكون ذا فائدة ومردود، إذا لم يسبق هذا التعاطي معرفة قبلية لمختلف الفلسفات والأفكار والمذاهب والتيارات ذات الصلة بتلك الآداب، ولعل هذا هو السبب في نفور الكثير عن الباحثين في تناول بعض النصوص الأدبية الأجنبية بالفحص والدراسة معتبرين إياها نصوصا مرهقةومتعبة كونها استندت على مرجعية فلسفية كثيرة التعقيد، وأعمال ألبيركاموAlbert Camus ، سواء منها تلك الواقعة في دائرة العبث أو تلك الواقعة في دائرة التمرد، ليست من هذه المسألة ببعيد .

---

[1]–بعزير سلان، التأصيل النظري لمصطلح المرجعية في التراث العربي والدراسات الغربية الحديثة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مجلد7، عدد8، 2015،ص124.

.

1) الكلاسيكية Classicisme:

يعتبر جل الباحثين في مجال الأدب أن المدرسة الكلاسيكية أو الاتباعية هي أول مذهب فكري أدبي ظهر في أعقاب النهضة الأوروبية وأوفول نجم الكنيسة الذي ظل جاثما على صدور الأوروبيين لأزيد من ألف سنة تقريبا، وقد كان ذلك في القرن الخامس عشر ميلادي.

كان أول ظهور لهذا المذهب في ايطاليا من خلال حركة حثيثة في الدوائر الأدبية في تلك الفترة لترجمة مؤلفات أرسطو بشكل خاص، لكن هذه المدرسة في ايطاليا لم يكن ليشفع لها بأن يظل اسمها مرتبطا بهذه المدرسة، فقد استطاعت فرنسا أن تتربع على عرش الكلاسيكية التي لم تنشأ بشكل كامل ويكتمل نضجها الا في أحضان اللغة الفرنسية في القرن السابع عشر، الذي شهد حكم الملك لويس الثالث عشر في نصفه الأول، والملك لويس الرابع عشر في نصفه الثاني.

وقد تجلى مذهب البلياد pléiade[2] ما بين سنتي 1546-1550 وهم " جماعة من ذوي العقول الشبة تجلى لهم بصورة مفاجئة سر الجمال الأدبي وكان سر هذا التجلي هو الاطلاع المباشر منذ عهد قريب على روائع الشعر اليوناني وعلى أعمال بعض من شعراء اللاتين"[3] وقد سعى هؤلاء الشباب في النصف الثاني من القرن السادس عشر التأسيس لمذهب أدبي جديد، واضعين له بعض المبادئ التي بين عليها لعوز المذهب الكلاسيكي فيما بعد لعل أهمها: تقليد الأقدمين، ايلاء أهمية للمفردات وتوظيف أسلوب الجزالة المأخوذ عن الأقدمين.

1-1- مبادئ المدرسة الكلاسيكية في الأدب :

تتمثل هذه القواعد في مجموعة من الاليات وضعها رموز هذا المذهب وفي مقدمتهم نيكولا بوالو Nicolas Boileau-Despréaux ، يغدو الأديب في هذه المدرسة كالجندي في الثكنة تماما " إذ هو مطالب بأداء مهتمة الاجتماعية السامية ومرغم على معرفة واحترام القواعد الضرورية في كل إبداع فني يستحق النجاح والخلود" [4]

أ- العقلانية الكلاسكية :

---

[2]- البيلد la pléiade: (1546-1550) وهم اسم أطلق على سبعة من الشعراء في عهد الملك هنري الثاني henry وهم رونسار- دي بلليه- ريمي بيللو، جوديل-دورا-بابيفوبونتوس دي تيار. Pierre de Ronsard, Joachim du Bellay, Jean-Antoine de Baïf, Étienne Jodelle, Rémy Belleau, Jean Dorat, Jacques Peletier et Pontus de Tyard).

[3]- فيليب فان تبم، المذهب الأدبية الكبرى في فرنسا،ط2، تردم فريد انطونيوس، منشورات عويدان، لبناء، 1980،ص9.

[4]-زوبير دراقي، محاضرات في الأدب الأجنبي، ديوان المطبوعات الجماعية، الجزائر1991.،ص29.

يقدس الأدباء الكلاسيكيون العقل، فمنه ينطلقون وإليه يعودون، والعقل عندهم " يرادف الذرق السليم والحكم السليم، ومن هذه الناحية اتخذوه وسيلة لتثبيت دعائم التقاليد والقواعد المقررة، وهم يعارضونه بالذرق الفردي، ويفضلون العقل لأنه ثابت غير متغير"[5]

إن العقل عند الكلاسيكييناأزلي لا يتبدل ولا يخضع لا للزمان ولا للمكان، لهذا كانت الحاجة دائما للعودة إليه والنقل منه.

وقد عمل بعض الباحثين على ربط الكلاسيكية بفلسفة "روني ديكارت" René déscartes العقلانية، لكن الحقيقة بحسب "لانسون" غير ذلك لسببين، أولهما أن كتابه المشهورة مقالة الطريقة لم يظهر سوى عام 1937، أي بعد نضج المذهب الكلاسيكي تقريبا، مما يفند أبوة "روني ديكارت" الشرعية له،وثانيهما أن اغلب معاصريه لم يكونوا مقتنعين بسيطرة العقل الكاملة على الحياة الإنسانية".[6]

وإجمالا يمكن القول أن العقل هو صمام الأمان عند الكلاسيكيين، فهو الذي يحول دون انسياق الإنسان وراء شهواته ونزواته من جهة ووراء خيالاته ومشاعره وأحلامه من جهة أخرى، إنه رمز الاستقامة الفكرية والسلوكية والحس الفكري السليم.

ب– محاكاة الطبيعة والقدامى:

من القواعد أيضا التي أرستها الكلاسيكية السعي دائما للتوفيق بين محاكاة الطبيعية (في المظهر وفي التعبير) ومحاكاة القدامى " إن تقليد الأقدمين هو المبدأ الأساسي للمذهب الكلاسيكي، لأنه فرض على الكتاب الاهتمام بالفن، الذي هو بالفعل الفتح الكبير لعصر النهضة ثم العصر الكلاسيكي، وهو النقطة الهامة التي هي نقطة انفصال هذين العصرين عن العصر الوسيط" ولو لا هذا المبدأ لما تمكن أكثر الشعراء موهبة، حتى ولو كانوا على دراية بأفضل طرق التأليف والابتكار ، من إعطاء مؤلفاتهم هذا الكمال الفني...."[7]

إن عملية المحاكاة هذه جعلت الجيل الأول من الكلاسيكيين بشكل خاص يشعر بإنتمائه الأدبي إلى مجموعة البلياد pléiade التي استطاعت أن ترنو من الكمال الفني، وقد حاولت مجموعة من " الكتاب في النصف الأول من القرن السابق عشر في التوقيف المنطقي بين اثنين من هذه المبادئ على الأقل، هما تقليد الأقدمين وتقليد الطبيعة " [8]

لقد حرص أدباء هذا الجيل على أن يكون تقليدهم هذا تقليدا مبصرا ومدركا وواعيا، فأختاروا من الأعمال ذات الجودة الفنية، وبهذا يكون هذا الجيل من الكلاسيكيين قد التزم بمبدأين أساسيين من مبادئ هذا المذهب وهما مبدأ العقل، ومبدأ التقليد، " وجمهور الكلاسيكيين محدود وارستقراطي، فليس أدب الكلاسيكيين شعبيا، وكانت جماعة الثريافي عصر النهضة أصرح في دعوتها من الكلاسيكيين، حين نصت على تحقيرها لسواد الشعب ، وقصرت الفن على الصفوة " [9]

---

[5]–محمد غتيي ملال، الأدب المقارن ، المرجع السابق، ص299.

[6]–زوبيير دراقي، محاضرات في الأدب الأجنبي، المرجع السابق،ص30.

[7]– فيليب فان تيغم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، المرجع السابق، ص45.

[8]– المرجعنفسه،ص44.

[9]–محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، المرجع السابق، ص300.

إن غلبة المنطق العقلي على أدب الكلاسيكيين كرس وجود الشعر المسرحي ، لابل وعمل على تشجيعه، ورمى بالشعر الغنائي في غياهب النسيان.

ج- مشابهة الحق :

ليس القصد من هذا المبدأ رسم الواقع بحذافيره، لما فيه من جمال وقبح ولا الممكن ، وإنما يضنأنه حدث بالاحتمال، فالجمهور، سواء أكان،يشاهد مسرحية أم يتتبع وقائع قصة، يجب عليه أن يشارك فيما يقدم إليه من حوادث عن طريق القبول والتصديق .

لكن هذه القاعدة لم تحظ بدراسات نظرية مستفيضة، ويبقى مصدرها الوحيد الفن الشعري لأرسطو، حيث يقول في الفصل التاسع منه " بديهي أن عمل الشاعر لا يصف ما حدث ولكن ما يمكن أن يحدث بحسب الضرورة، فالمؤرخ والشاعر لا يختلفان في كون الواحد ينظم والأخر ينشر، لكن الاختلاف الحقيقي هو أن الأول يقول ما حدث والثاني ما يمكن أن يحدث، فالشعر يعبر عن العام والتاريخ عن الخاص" [10]

د-اللياقة الأدبية:

من خلال السعي الدائم والدؤوب من أجل تحسين الأسلوب وتجويده، والتشدد في اختيار المفردات المناسبة والألفاظ الدقيقة، والعناية بتوظيف الصور الفنية الجارية والتركيز على الجانب الأخلاقي للأدب ، وقد تأخر العمل بهذه القاعدة حتى حدود سنة 1630،ومع ذلك فهي هامة جدا وتتألف من عناصر عدة، منها ما يتعلق بالأخلاق كالتحلي بفضيلة الاحترام، وتجنب مات يسبب العفة والحساسية وإلغاء كل المناظر المنفرة أو الكريهة في العرض المسرحي: ومنها ما يتعلق بفنيات الكتابة كاحترام الزمن التاريخ والعادات ومنزلة الأشخاص" [11]

لقد أحيطت الكلاسيكية بمجموعة كبيرة عن المحاذير من بين قواعد، وقوانين وخطوط حمر لا يمكن تجاوزها، الشيء الذي قلل من عدد المنتسبين إليها، إضافة إلى كون الفئة المستهدفة من إبداعات رموزها هي أيضا نخبة قليلة، لكن هذه المحدودية لم تمنع هذا التيار من أن يشق طريقه بكل ثبات ويترك بصمته الواضحة الجلية في تاريخ التيارات الفكرية والأدبية العالمية.

1-2- رموز المذهب الكلاسيكي:

برزت الكلاسيكية أول ما برزت مع الايطاليين من خلال الترجمات المتعددة لكتاب فن الشعر لأرسطو، وكذا الشروح التي تبعته، لكنها لم تنضج وتظهر بمظهر المذهب الأدبي الكامل إلا في فرنسا في القرن السابع عشر، وكان نيكولا بوالو دسبريو Nicolas Boileau-Despréauxأفضل من نظر وقعد لهذا المذاهب الأدبي، عرف بأشعاره الهجائية " كتب "بوالو" بين سنتي (1657-1705) وعلى فترات متقطعة، مجموعة أبيات شعرية هجائية مستوحاة عن نماذج قديمة (هوراس) ومن شعراء محدثين (ماتيران رينييه)[12]

---

[10]-زوبيردراقي، محاضرات في الأدب الأجنبي، المرجع السابق، ص33/32

[11]- المرجع نفسه، ص33.

[12] - ترجمة الباحث.

« Entre 1657 et 1705, Boileau rédige, à intervalle discontinus, douzes piéces de vers satiriques inspirés des modèles anciens (horace) et de poètes modernes (Mathurin régnier »[13]

عرف كتاب فن الشعر " لبوالو " اقبالا كبيرا من طرف النخب الأدبية لتلك الفترة بالرغم من كون الأفكار التي احتواها لم تكن جديدة،بل سبق تناولها من قبل العديد من الكتاب الذين سبقوه ، لكن " ميزة "بوالو" هو نجاحه في تكثيف المفاهيم التي وردت في الفن الكلاسيكي، في أبيات منظومة بشكل جيد تاركة بصمات في الأذهان...

- قبل أن تشرعوا في الكتابة تعلموا إعمال العقل(النشيد1- البيت 150)
- فما نعيه جيدا، نعبر عنه بوضوح.
- والعبارات تأتي يسيرة سجية (النشيد1- البيت 155/154à.
- أحبوا من يقدم لكم النصح، لا من يغمركم بالثناء(النشيد1-البيت172)

فلا يمكن لأفعى، أو وحش بغيض أن يشترضي الإلهة بفنه المحاكى النشيد 2-البيت ½"[14]

« Le talent de Boileau est d'avoir réussi de condenser les préceptes de l'art classique dans quelques alexandrins bien frappés qui marquent les esprits…

-Avant donc d'écrire, apprenez à penser (chant 1 –vers 150).

- Ce que l'on conçoit bien s'énonce clairement
- Et les mots pour le dire arrivent aisément (chant 1 – vers 154/155).
- Aimez qu'on vous conseille et non pas qu'on vous loue (chant 1 vers 192).
- Il n'est point de serpent ni de monstre odieux, qui par l'art imité, ne puisse plaire aux dieux (chant 3 vers ½)[15]

وقد كان لكتابات "بوالو"كبير الأثر في الشاعر والمترجم الانجليزي "جون اولدهام" John oldham والشاعر والناقد والمترجم " جون دريدنJean Dryden(1631-1700) الذين أسسا بدوريهما المذهب الكلاسيكي في انجلترا، أما في ألمانيا، فقد تبوأ هذه المهمة الكاتب والفيلسوف "يوهان جو تشهيد" (1700-1766) johann Gottsched.

و من بين ما جاء في كتاب فن الشعر لبوالو:

عن الالهام الشعري:

*- عبث يفكر كاتب مشهور

- في الوصول الى مستوى قي الشعر

[13] - Daniel berges, précis de la littérature française, armand collin, France,1995, p: 138.

[14] - ترجمة الباحث

[15]- Daniel berges, précis de la littérature française, opcit,p: 139.

– إذا لم يحس بتأثير السماء الخفي

– إذا كان نجمه لم يقدر له أن يولد شاعرا

– إنه يظل دائما أسير قريحته الجدباء

*** عن الاحساس السليم:**

– سواء أكان الموصوع الذي تطرقه هازلا أم ساميا

– فيجب أن يتفق الاحساس السليم مع القافية

– وإذا جد الانسان في البحث عنها

– اعتاد العقل في يسر العثور عليها

– ولكن إذا أهملت صارت عنيدة

– وجرى المعنى وراءها للحاق بها

***عن موسيقى الشعر:**

– لا تدفع إلى القارئ إلا ما يمكن أن يمتعه

– ولتكن أذنك صارمة من أجل الإيقاع

– ومهما كان بيت الشعر، ومهما كان نبل الفكرة يشع فيه

– فإنه يعجز عن امتاع العقل إذا نفرت منه الأذن[16]

ومن أعلام الكلاسيكية أيضا من الذين تركوا بصمات لن تمح، خاصة فيما تعلق بالاعمال الدرامية، نذكر ثلاثي المسرح الفرنسي: موليير) Molière (1673/1622) مؤلف مسرحيتي البخيل L'avare وطرطوف Tartuff، والمسرحي جان راسين Jean racine (1699/1639) صاحب مسرحيتي ألكسندر الأكبر Alexandre le grand وآندروماكAndromaque، و ثالث الثلاثة المسرحي "بيير كورناي" Pierre Corneille مبدع مسرحيتي السيد) Le cid وهوراسHorace

2- الواقعية **Réalisme**:

عرف العصر الحديث انتشار العديد من المذاهب والتيارات الفكرية التي جاءت كتتويج للتطور الفكري الذي شهدته البشرية من جهة، وكرد فعل على تيارات فكرية سبقتها من جهة أخرى، واستند كل تيار من هذه التيارات على مرجعيات ومصطلحات ولغة خاصة به ، ومن بين هذه التيارات تيار الواقعية، الذي ظهر في شكل مستقل، انطلاقا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كرد فعل على التيار الرمنسي الذي أوغل في الخيال والانطواء على الذات، والبعد عن الواقع المعيش بكل ما يحمله من مآسي ومتاعب وإخفاقات فإذا :" كانت الرمنسية تحتفل بالأحلام والرؤي والتخمينات، انطلاقا من هذا الطرح كانت نظرة الواقعيين

[16] - علي درويش، دراسات في الأدب الفرنسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1973، ص131.

للرمنسية نظرة تلفها السلبية، وهذا :" يتجلى في نقد الواقعيين للتشاؤم الرمنسي الشهير حتى في أرقى تعبيراته وأنضجها وأقربها إلى روح التمرد الثوري."[17]"

لم يقتصر نقد الواقعية للتيار الرمنسي وحده ، بل طال نقدها الكثير من التيارات الفكرية والأدبية السابقة واللاحقة ، فبالرغم من تقاطع الكلاسيكية في كثير من المجالات مع الواقعية الموضوعية النموذجية مثلا ، إلا أن ذلك لم يشفع لها من تعرضها لوابل من الانتقادات " ... بيد أن الواقعية ترفض مثالية الكلاسيكية وتفسر النموذج على أنه نموذج اجتماعي وليس نموذجا إنسانيا عالميا مطلقا ، كما ترفض ما تفترضه الكلاسيكية من وضع سلم لشرف الموضوعات ونبلها ، وتكسر مستويات الأسلوب"[18]، كما لم تسلم من هذا النقد المدرسة الطبيعية التي تزعمها" إميل زولا Emile Zola "مؤسسا بذلك لنهج جديد في الرواية والقصة ، يعتمد بشكل أساس على مخرجات المنهج العلمي فصارت الرواية عنده توسم ب " الرواية التجريبية Le roman expérimental "متأثرة في ذلك بمنهج "كلود برنار Claude Bernard " في كتابة " مدخل لدراسة الطب التجريبي " الذي يقول عنه : " هذا الكتاب الذي ألفه عالم يعتبر رأيه حجة قاطعة ، سأتخذه أساسا صلبا لي وسأحاول العثور فيه على جميع أبعاد المشكلة ، وعندما استشهد ببعض نصوصه، يكفيني أن أحل كلمة قصصي محل كلمة طبي لستقيم النظرية كحقيقه علمية [19]"

لقد أكد " إميل زولا " في الرواية التجريبية، على أن لا يقف الكاتب موقف المتفرج على الأحداث، مسجلا أياها فحسب ، بل لا بد من أن يقف منها موقف المجرب ((Expérimentateur الذي يخضع شخصياته لجملة من التجارب، ويعالج القضايا الاجتماعية والنفسية كما يعالج الطبيب مرضاه، وكما يتعاطى الفيزيائي مع المادة موضوع تجربته ، وهذا التصور جعل هذا التيار محط انتقادات لاذعة من قبل الواقعيين، فإذا كانت :" ضرورة خلق النماذج تعد من أهم أسس الواقعية الجمالية، فإن هذا يقوم في وجه الاتجاهات التي تبرز بإفراط الجانب العضوي في الوجود الإنساني كما نرى عند " زولا " ومدرسته، و في وجه الاتجاهات الأخرى التي تنحصر بالإنسان في المستوى النفسي البحت[20]"

إن الروئ والتصورات مرتبطة بالجماعة والبيئة التي نمت فيها وترعرت:" وإذا كانت المثالية ترى أن الإنسان يدرك الوجود بخواطره و تأملاته ، فإن الواقعية ترى أنه يدركه بتجاربه العلمية الواقعية، هذا هو الأساس العام القاسم المشترك الأعظم الذي تشترك فيه كل مفاهيم الواقعية"[21]

كان للخصومة الحادة التي نشبت بين مجموعة من النقاد التشيكيين والكاتب الفرنسي " جول فرنسوا فيلكس المعروف بإسم" شمفلوري نسبة Champfleury الأثر الكبير في بروز JulesFrançois Féliks Husson"هوسن لبلدية شمفلوريمصطلح الواقعية، " إذ قام هذا الكاتب عام 1857 بنشر مجموعة من المقالات الأدبية في مجلد أطلق عليه اسم

---

[17] - صلاحفضل،منهجالواقعيةفيالإبداعالأدبي،ط2،دارالمعارف،القاهرة،مصر، 181،ص187

[18]- المرجعنفسه،ص 186

[19] -- المرجعنفسه،ص189/188

[20] -- سيدأحمدالنساخفيالرمنسيةوالواقعية،المرجعالسابق،ص74

[21] -المرجعنفسه،ص77/76.

الواقعية، كما أصدر مع أحد أصدقائه مجلة أدبية، لم تعمر كثيرا، تحمل نفس التسمية " الواقعية "، وقد تبلورت في هذه الكتابات النقدية المبادئ الأولى للواقعية"[22]"

تأثرت الواقعية كتوجه أدبي بالكثير من الفلسفات السائدة في تلك المرحلة، كالفلسفة الماركسية والفلسفة الوضعية والوجودية :" فقد اتجه الفن نحو الواقع بتأثير آراء فرانسيس بكون (Francis Bacon(1561-1626 وهو أول من نادى بأن الفلسفة الطبيعية الواقعية التي تعتمد على التجارب الحسية للوصول إلى حقائق الوجود، هي وحدها الجديرة بالاحتفال "[23]

انتشر المذهب الواقعي بسرعة في اوروبا، فأشتد عوده وذاع صيته وكثر مريدوه، فتطور بشكل لافت مع كتابات" غي دو G de و" الإخوة جونكور Les Frères Goncourt و" ألفونس دوديه Alphonse Alphonce Daudet موبسان " Maupassant

Sthendal و"ستندال ، Mérimé" ومريميهGustave Flaubert غوستاف فلوبير "و Emile "وإميلا زولاZola الذي ترك بصمات واضحة في تاريخ الرواية العالمية، بتزعمه لتيار الواقعية الطبيعية وريادته لما بات يعرف بالرواية التجريبية، و" اونوريه دو بلزاك Honoré de Balzac " رائد الواقعية النقدية، وصاحب أكبر موسوعة في الأدب الواقعي ، اسماها ساخرا ب " الكوميديا الإنسانية La comédie humaine " ، وهي عبارة عن مجموعة من المؤلفات تفوق التسعين مؤلفا ما بين رواية وقصة ومقالة، امتدت كتابتها ما بين 1829-1850 ، صور فيها بلزاك الواقع الاجتماعي بكل مآسيه وتعقيداته، والطبيعة البشرية بكل جشعها وطمها وسوءاتها، ومن هنا كانت المفارقة بين المضمون وعنوان هذا العمل (الكوميديا) : " وقد صور بلزاك صراع البورجوازية الأوروبية في سبيل الثراء والسلطان، وتحول ضمائر أفرادها من الإيمان بالمثل الأخلاقية الكريمة إلى الإيمان بالثروة وفضح فئة معينة أضلها اتجاهها الاستغلالي الجشع ... فكانت واقعيته بذلك اجتماعية محضى لم يتكلف فيها تطبيق النظريات العلمية ، وإنما قامت على النقد البناء المفيد"[24]"

2-1) الواقعية الاشتراكية **Réalisme socialiste**:

تبلورتالواقعيةالاشتراكيةكمدرسةأدبيةوفكريةفيالنصفالأولمنالقرنالعشرينفيمؤتمرإتحادالكتابالروسسنة 1934،عليد مجموعةمنالكتابالروسلعلأبرزهمكانمكسيمقوركي Maxime Gorki ووآندريجدانوف[25] Andrei Jadanovهذاويعدالتاريخمحطةهامة،ومنعرجاحاسما،وتحولاتاريخيافيحياةالأمةالروسيةالأدبيةوالثقافية.

تتكئالواقعيةالاشتراكيةمنالناحيةالفكريةعلىالفلسفةالماركسيةالتيقعدلها"كارلماركس"متأثرابكتاباتأستاذه " جورجفريديريشهيجل"وأفكارالاشتراكيينالفرنسيين " بيارجوزيفبرودون"و"

---

[22] -صلاحفضل،منهجالواقعيةفيالابداعالادبي،المرجعالسابق،ص13

[23] -سيدأحمدالنساخفيالرمنسيةوالواقعية،المرجعالسابق،ص74

[24] - المرجعنفسه،ص77.

[25] - آندريجدانوف (1896-1948) : مفكرومنظروسياسيسوفياتي،منالمقربينمنالزعيمالسوفياتي " جوزيفستالين " كانمثقفاموسوعيا،عملعلىتوظيفكلالوسائلوالامكاناتالفنيةوالابداعية (فن،آداب،موسيقى ...)
منأجلمواجهةالثقافةالبرجوازية،الىحدأنعدالبعضأفكارهتيارافكرياقائمابذاته (الجدانوفية).

سانسيمون"الذياشتهربكونهالرجلالذيوضعالاقتصادمكانالإلهكمايقولعنهأتباعه،وهوالشيءالذيساهمفيتحولهمنالمثاليةإلىالمادية،ومنالديمقرا طيةالثوريةإلىالشيوعيةالثوريةف :"هناكإذن عاملان أساسيان ساعدا على بلورة الدعوة إلى الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن، أما أولهما فهو الفلسفة الواقعية المادية الماركسية، وأما ثانيهما فهو ظروف المجتمع والحياة في روسيا بعد نجاح الثورة الاشتراكية "[26]

أشار" ماركس " وانجلز " في أكثر من موضع إلى أن فلسفتهما المادية إنما هي تتويج للمثالية الهيجلية، وإن كانا قد وجها نقدا قاسيا لهذه الأخيرة، منطلقين من فكرة أساسية وجوهرية في فلسفتهما، وهي اعتبارهما أن المادة هي أساس هذا الكون (الأجسام الحية : إنسان، حيوان، نبات، وأدوات الإنتاج، والتقنيات الحديثة...)، وأن مدار حياة البشر يدور حول التحولات التي تلحق بهذه المادة، ومن ثمة تأتي مسألة الأفكار والقيم والأخلاق، وهو ما يعرف في الفسلفة المادية بالبنية الفوقية، فيما تمثل المادة البنية التحتية، فالعلاقة بين هاتين البنيتين في الفلسفة المادية هي علاقة تصاعدية تنطلق من الأسفل (المادة) لتصل إلى الأعلى (الروح – القيم– الأخلاق).بينما ترى الفلسفة المثالية الهيجلية، أن مركز هذا الكون هو الروح وليس المادة كما يرى "ماركس " و"انجلز "، فالروح هي مصدر كل الأفكار والسلوكيات التي تطبع حياة الإنسان، وأن هذه الأخيرة ما هي إلا تعبير وتجسيد لما تمليه الروح.

إن البنية الفوقية في الفلسفة المثالية هي الأساس، والعلاقة بينها وبين البنية التحية إنما هي علاقة نزولية تنطلق من الأعلى (الروح، الأخلاق القيم) لتصل إلى تحت (المادة و الجسم).

إن القول بأسبقية المادة على الروح (الفكر– القيم– الأخلاق) قول ليس صحيحا بالمطلق ، فإذا كنا نرى في الكثير من الحالات أن الأفكار التي نحملها إنما هي انعكاس لوقائع عشناها ولمسناها، فإننا نجد أيضا أن بعض الحالات لا تستجيب لهذه الرؤية المادية البحتة، لأنه قد يحدث أن نحصل على انتاجات فكرية وقيمية متنوعة، لا بل ومختلفة انطلاقا من الواقع المادي نفسه.

كما أن الاعتقاد بأن لا وجود لأشياء مستقلة بذاتها، وخارجة عن نطاق المنظومة الفكرية والقيمية، اعتقاد فيه بعض المغالاة، لأننا يمكن أن نجد بعض الوقائع التي يمكن أن تأتي سابقة للفكر (وقائع طبيعية جامدة مثلا كالأرض والجبال والسماوات ، وحية كالحيوان مثلا

لقد أتاحت وجهة النظر الماركسية هذه للكتاب الواقعين، أن يتسلحوا بقدرات جديدة في ضوء الفلسفة العلمية الحديثة، وأن ينفذوا منها إلى حقيقة قوانين التطور الاجتماعي المتحركة بصورة موضوعية، وأن ينشطوا في المطالبة بأدب واقعي ثوري يعبر عن الطبقة المنتصرة، وينتصر للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، ويكون له دوره الايجابي الفعال والبناء الذي لا يقل عن دور أي وسيلة من وسائل الإنتاج باعتباره عملا منتجا، وبالنظر إلى الأديب من حيث كونه عاملا منتجا أيضا، وهنا برزت الدعوة إلى " الواقعية الاشتراكية التي استفادت كثيرا عن النظرية الماركسية."

تعرضت الواقعية الاشتراكية كغيرها من المنظومات الفكرية والفسلفية والأدبية إلى وابل من الانتقادات من خصومها كما من بعض المنتسبين إلى المدرسة الواقعية :" وقد عيب على الواقعية الاشتراكية، كونها ركزت على المضمون دون الشكل، بلا تبنت كلية الأشكال المعتمدة في الأدب البرجوازي، ونحن نعرف أن الشكل ليس حياديا و أنه يمثل الوعاء الذي يشكل المحتوى والمضمون ، لذلك فإن تغير المحتوى دون الشكل أدى إلى جملة من المتناقضات التي أثرت على محدودية المذهب الواقعي الاشتراكي، ونحن

[26] -- سيدأحمدالنساخ،فيالرمنسيةوالواقعية المرجع السابق، ص84.

نعرف أيضا أن المحتوى في الواقعية الاشتراكية هو الأهم، بينما يضحى بالشكل في أغلب الأحيان" [27] ، كما كانت هدفا لبيان شديد اللهجة" يعتبرردفعلضدالواقعيةالاشتراكية،وقعهكلمنالكاتبالفرنسيالشهير " آندريبرتون"مؤسسالسريالية،والرساماملكسيكي " ديبجوديريبرا"،وكلاهماماركسي،تحتعنوانمنأجلفنثوريمستقل - ويقالأنكاتبالبيانهو " تروتسكي" نفسه،لكنهآثرألايوقععليه - يشنونهجوماعنيفاعلىتبعيةالفنالذليلةللدولةفيعهد ستالين"[28]

وبالرغم من هذه السهام السامة الموجهة إلى هذه المدرسة الفلسفية والفكرية، مضت الأخيرة بكل ثقة، شآقة طريقها في خضم واقع تعيس ويائس، يستقبلها الكثير من النقاد والمفكرين والأدباء بترحاب كبير، معتبرين إياها بارقة أمل، عساها تكون حيزا وفضاء لمجال إبداعي جديد، وسانحة تفتح أمامهم آفاقا غير محدودة، ويؤسس لميلاد مجتمع اشتراكي نموذجي :" وقد انتشرت الواقعية الاشتراكية في كل بلدان العالم تنظيرا و إبداعا، ورأى فيها بعض كبار الأدباء العالميين مشروع بعث إنسانية جديدة ، ومن روادها الكبار الشاعر الروسي " مايا كوفسكي" والأديب الروسي ذائع الصيت" غوركي " و" لويس أراغوان " في فرنسا ، و" ناظم حكمت " في تركيا و" بابلو نيرودا " في الشيلي و" غارسيا لوركا" في اسبانيا ومحمد ذيب في الجزائر [29]"

2-2) الواقعية الطبيعية: **Réalisme naturel**

تحتل الواقعية الطبيعية في ثناياها معنين اثنين،الأول ظاهري يستشف من الوصف المباشر للواقع والثاني من الملاحظة العلمية الدقيقة للسلوك الإنساني قصد استنباط القواعد التي تحكمه بنزاهة عالم الطبيعية تجاه النبات والحيوان على السواء" [30]

لقد حاول إميل زولا **Emile zola** زعيم هذا التيار الأوحد أن يتعاطى مع الأدب بعقلية علمية صرفة، تماما كما يتعاطى عالم الأحياء مع مواد تجربته، مقتفيا أثر علماء الأحياء وعلماء الكونوقد كان ل "كلود برنار" و "تان" كبير الأثر عليه، من خلال توظيفه لمناهج العلوم التجريبية لرسم صور الإنسانية حتى القاتمة منها، واصفا الطبقات الاجتماعية والحياة الدنكا للمقهورين المستضعفين."[31]

« Influencé par Claude bernard et par taine, Zola uttilise la methode des sciences expérimentales pour peindre l'humanité la plus sordide, il décrit les classes populaires et l'existence misérable des pauvres et des exploités »[32]

لقد كان للطفرة العلمية التي ظهرت في عصر " زولا " دورا مهما في توجهه هذا، ككتاب "كلود برنار " الذي سبق الإشارة إليه، وكتاب شارل داروين (أصل الأجناس)وأراء "تان" النقدية.

---

[27] -الطبيبيبودربالة،جابااللهالسعيد،الواقعيةفيالأدب،مجلةالعلومالإنسانية،عدد7،جامعةمحمدخيضر،بسكرةالجزائر،ص62

[28] -صلاحفضل،منهجالواقعيةفيالايداع،المرجعالسابق،ص88-89.

[29] -الطبيبيبودربالة،جابااللهالسعيد،الواقعيةفيالأدب،مجلةالعلومالإنسانية، المرجع السابق، ص61.

[30] – زوبيردراقي،محاضرات في الأدب الأجنبي المرجع، السابق، ص73-74.

[31] - ترجمة الباحث

[32] - Daniel berges, précis de la littérature française, opcit, p:241.

2-2-1- خصائص الواقعية الطبيعية:[33]

أ- **الملاحظة** : وهي دراسة الظاهرة كماهي دون تغيير، فالملاحظة التي هي عماد العلوم الطبيعية، صارت كذلك بالنسبة للعمل الروائي، عمل ينا في الخيال تماما .

ب- **التجربة** : هي تجربة حقيقية يجريها مؤلف الروايات على الإنسان مستعينا بالملاحظة أو المعاينة الميدانية، وهذا ما يميز القصة الطبيعية عن فرينتها الواقعية.

ج-**الحتمية** : هي ناتجة بصفة مباشرة من المنهج التجريبي، مفادها أن الإنسان يخضع إلى تصور مادي وشامل ومحكم.

د- **التداخل** : وبه تقترب الروائية الطبيعية من العلوم وتبتعد نهائيا عن الفن فبعد تقمصه شخصية العالم، يتدخل القاص بإجراء التجارب على الطبائع والا هواء وعلى الحوادث الإنسانية، تماما مثلما يفعل الفيزيا ئي مع الأجسام الخام.

2-2-2- المآخذ : تعرضت الواقعية لحملة كبيرة من الانتقادات من قبلقامات أدبية ونقدية كبيرة من بينها الناقد الماركسي الكبير جورج لوكاتش **Geoge luckas** الذي ينتقد " واقعية "زولا" انتقادا شديدا ويرى أنها كانت ذات تأثير شيء في بعض اتجاهات الواقعية الاشتراكية، وهو يخصها باسم الطبيعية، ويميز بينها وبين الواقعية النقدية، دون أن يبين أن كان ثمة اختلاف جوهري بنيهما " [34]

ومن بين الانتقادات أيضا التي طالت الواقعية الاشتراكية، بالرغم مما "تتضمنه من معالجة علمية وتتطلبه عن فلسفة مادية حتمية، بينما كان من سبقه من الواقعين اقل وضوحوا واتفاقا في ولاءاتهم الفلسفية" [35]،كونها غالت في تنديس العلوم الكونية وحاولت إسقاط قوانينها على العلوم الإنسانية وعلى الأدب تحديدا، ناسية أو متناسية أن أهم ما يميز هذه العلوم الكونية هو الاستقرار والثبات، في حين أن أهم ما يميز العلوم الإنسانية، والأدب من بينها، هي التغير باستمرار وعدم الثبات وفي هذا خطأ منهجي وعلمي جسيم .

2-3 - الواقعية النقدية **Réalisme critique**:

الواقعية النقدية هي ضرب آخر من ضروب الواقعية، تعمل على تصوير الواقع بطريقة، موضوعية، ونقدية نقدا أدبيا وفنيا، تغلب عليه النزعة التشاؤمية، من دون أن تقترح حلولا، استطاعت الواقعية النقدية أن تعمر لفترة طويلة مصورة" الحياة الممزقة، الحياة التي تسحق كل ما في الإنسان من جميل وعظيم بلا رحمة ولا هو ادة ، ولهذا غلبت على رؤيتهم مسحة من التشاؤم، ومع الواقعية النقدية تنفجر بنية العالم القديم وتهتز أركان اليقينيات البورجوازية،فيتشكل لدى الإنسان وعي مأساوي بالحياة ..." [36]

---

[33]- ينظر زوبير دراقي، محاضرات في الأدب الأجنبي، المرجع السابق، ص77.

[34]-شكري محمد عياد، المذاهب الأدبية والنقدية، عن الغرب والغربيين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدبي الكويت، 1993،ص186.

[35]-**ريني وليك، مفاهيم نقديو، تر: محمد عضور** ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، الكويت، 1990، ص159.

[36]- الطيب بودربالة، جاب الله السعيد، الواقعية في الأدب، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، العدد7، ص ...

ويعد "هونوري، دي بلزاك" **Honoré de balzac** ، أفضل من مثل هذه المدرسة الأدبية، فقد " ترك أكبر موسوعة في الأدب الواقعي، وهي تشمل نحو مئة وخمسين قصة ، أطلق عليها في آخر حياته إسم الكوميدية الإنسانية على سبيل السخرية لأنها في حقيقتيها مأساة إنسانية" [37]

لقد صور"بلزاك" في هذه العمل الجبار، الذي يفوق التسعين مؤلفا ما بين رواية وقصة ومقالة، امتدت كتابتها ما بين 1829-1850 الواقع الاجتماعي بكل مآسيه وتعقيداته، والطبيعة البشرية بكل جشعها وطمعها ولؤمها، ومن هنا كانت المفارقة بين هذا المضمون المأساوي وعنوان هذا العمل الكوميدي.

3- العبثية **L' absurdisme**:

يعني "كامو"

منمصطلحالعبثبصفةعامة"انعداماالتوافقوالانسجامبينحاجةالذهنإلىالترابطالمنطقيوانعداماالمنطقفيتركيبالعالم،الأمرالذييكابدهالذهنويعانيه" [38]ويضرب "كامو" مثالالذلكفيمقالته "اسطورةسيزيف**le mythe de Sisyphe** "،المؤسسة "لمذهبالعبث " **Absurdisme**وهييذلكتسيرفينفساتجاهكتاباتهالسابقةخاصةماتعلقمنهابمؤلفيه : "الظهروالوجه **L'envers et** " **l'endroit**،و"اعراس**noces** "،قائلاً: «

فإذاأنتاتهمترجلاًبريئاًبجريمةفظيعة،وإذاقلتلرجلفاضلإنهاشتهىأختهفإنهسيردبأنهذاعبث...إنالرجلالفاضليصوربهذاالجوابالتناقضالمحددبينالفعلالذينسبتإليهومبادئهالتيعاشبهازمناًطويلاً،إنتعبيرعبثيعني (هذامستحيل"[39]ويضرب "كامو" مثلاًآخرفيهذهالمقالةالفلسفيةفيقول: "وكذلكأيضا:

إنهذامتناقضإذاأنترأيترجلاًوليسمعهسلاحإلاسيفايهاجمجماعةمنحملةالرشاشات،فإنيسأعتبرتصرفههذاعبثاً،ولكنحكميهذالنيكونإلابسببعدمالتناسبينمقصدهوالواقعالذييواجه،سيكونبسببالتناقضالذيألاحظهبينقوتهالحقيقيةوالهدفالذييسعىإليه"[40]

وقديشيرالعبثكماتخبرنامعاجمالغويةوالفلسفيةإلىأمرين :

"فهوقديعبرتارةعنفسادفياللغةأوالذوقالعام،أوعمالايستقيممعالقواعدالمألوفةفيهذهاللغةأوالذوقالعام،وهوتارةأخربيدلعلمايناقيالعقلويخرجعمايمكنالحكمعليهبالخطأوبالصوابوالأساسالمنطقيفيالأمرينواحد"[41]

وبهذاالمنطقيكونالعبثبالنسبة "لكامو"

هوذلكالاعتقادالناجمعنتلكالعلاقةبينمتطلباتالانسانالمعقولة،والعالمغيرالمعقولالذييعيشفيههذاالانسان،يقول "جونكروكشانك" بشأنهذاالتناقضالذييعيشهالإنسانالعبثي: « فالتناقضالذيظليكونثنائيةفيكتاب "اعراس"،أصبحفيأعنفصورهفيكتاب "اسطورةسيزيف" لدرجةأنهاتخذصورةالمقارنةالتيتستعصيعلىالحلوتؤديإلىاثارةالاحساسبالعبث"[42]

---

[37]-سيد حامد النساج، في الرومانسية والواقعية، مكتبة غريب القاهرة، مصر، ص77.

[38] -كروكشانكجون،البيركاميوأدبالتمرد،ترجمةوتعليقوتصدير: جلالالعشري،الهيئةالمصريةالعامةللكتاب،مصر، 1986،ص78.

[39] -كامو البير،اسطورةسيزيف،ترجمةمجاهدعبدالمنعممجاهد،هلاللنشروالتوزيع،ط1،الجيزة،مصر، 2013،ص45.

[40] -المرجع نفسه،ص45.

[41] -مكاويعبدالغفار،البيركامي: محاولةلدراسةفكرهالفلسفي،دارالمعارف،مصر، 1964،ص19.

[42] -كروكشانكجون،البيركاميوأدبالتمرد،المرجعالسابق،ص80.

إنهذاالتناقضهوالذييدفعبالإنسانالعبثيبإتجاهالانتحار،سواءأكانذلكانتحاراًجسدياًينتهيبالموت،أوانتحاراًفلسفيا un **suicide philosophique**،يحافظعلىالحياةويدفعبإتجاهالأملاذاماتمكنمنهالوعي،وفيهذاالوعيالذيادركه "سيزيف" تكمنسعادتهكمايعتقدذلك "كامو" ،فبتكرارهرفعالصخرةمنقاعالواديإلىقمةالجبل،يشعر "سيزيف" أنلاجدوىمنعملهذا،إلاأنتمسكهبالحياةوبالأمليجعلهأشداصراراًعلىمواصلةعملهالعبثي،متحدياًالموتفيكللحظةتمربه،ولهذاالسببكانسيزيفبطلاًعبثياًبامتياز.

إنالحديثعنالعبثلدىكاموقديدعوالبعضإلىالاستغرابومنثمّإلىالتساؤل: هليستقيمالقولبالعبثلدىأديبفرنسيمعاصرمثل "كامو" معالثورةالعقليةالديكارتيةالتيشهدتهاالمدرسةالفكريةالفرنسيةتحديداً؟وتعليقاعلىهذاالموضوعيقول "كروكشانك": «وبغضالنظرعلىاعتباراتأخرى،سواءكانتهذهالاعتباراتتدورحول "ردالفعلالحتمي" أو "ارتداءذراعالبندول" فمالاشكفيهأنفرنساعاصرتيارين،التيارالأولهوالنزعةالديكارتية،والتيارالآخرالملازمللتيارالأولهوالتراثالمناقضللمذهبالعقلي،وقدتصدرهذاالتراث،المحالالفلسفيفيفرنسااعتباراًمناواخرالقرنالماضيومستهلهذاالقرن"[43]

إنالقولبفكرةالعبثأوالمحالليسبالأمرالمستجد،فقدتمتوظيفهذاالمفهومنطرفالكثيرمنالفلاسفةوالمفكرينوالأدباء،وفياعمالأدبيةمتنوعةمنهاالروائيوالقصصيوالمسرحيوالشعري،لكنطرح "كامو" لهذاالمفهومكانلهخصوصيتهولمستهالمميزةبعدأنكانقدتأثربأعلامالفكرالفلسفيالمعاصرمنأمثال: "باسكال"، "كيركجارد" والفيلسوفالوجوديالروسي"ليونشستوف."

وقدوظف "كامو" بذكاءمميز "أسطورةسيزيف" – التيتعّجبالأسئلةالفلسفيةمنقبيل : هلتستحقهذهالحياةأنتُعاش؟وماالفائدةمنوجودمحكومعليهبالزوالسلفاً؟ثمماجدوىأننساقإلىهذهالدنياثمنجبرعلىالرحيلعنها؟ – لدراسةهذاالمفهوموتحليلهوصولاًإلىنتائجقدتوسمبالإيجابيةإذاماقارناهابماتوصلإليهسابقوهفيهذاالمجالكانبثاقالوعي **La prise de conscience**الذيدونهلايمكنلمفهومالعبثأنيستمروكالحريةالداخليةالتييشعربهاالإنسانالعبثيوالتيتمنحهالرغبةفيالتمردوفيالحياة"[44]

لقددارتأعمالكاموالروائيةوالمسرحيةحولمسائلثلاث: العبثوالتمردوالثورةفإنكانقدعالجمسألةالتمردفيالانسانالمتمرد **L' homme révolté**،فلقدعالجهفيرسالتهالفلسفيةالموسومةبأسطورةسيزيف **Le mythe de Sisyphe** ثمروائيا **L'étranger** فيالغريبوأخيرامسرحيافيكاليغولا **Caligula**.

---

[43]. - المرجع نفسه، ،ص89

[44]- ينظر: رسلانهالة،البيركامو (1913-1960)الموقعالإلكتروني :www.maaber.org تاريخوساعةالاطلاع: 2022/09/12 الساعة:15.30